

واقع المخطوطات الإسلامية في البلاد العربية والأوروبية

د. عمر لقمان سليمان بوعصبانة*

تمهيد

كان لميلاد مخبر المخطوطات بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران أثر بالغ في نفسي وذلك لما في النفس من شجون أمام مسؤولية البحث عن المخطوطات والتعرف عليها. إذ المخبر جهد دولة ومؤسسة وباحثين لهم باع في ميدان العلم يستطيعون أن يضطلعوا لهذه المهمة الضخمة. فحمدت الله على هذا التوفيق رغم أن المخبر في بداية الطريق. وأمام إلحاح زميلي د. بن نعيمة رئيس المخبر، لأبدي له تجربتي في الميدان. أجد نفسي مضطرا لأن ألي دعوته وأضعها أمام اخوتي الباحثين مع ما فيها من عفوية ولما في ذكرها من إضفاء شهرة قد تكون سببا في إنقاص الأجر لمن أحسب أجره على الله وحده. وأملني أن أكون قد أسديت يدا للباحثين رغم ضيق الوقت وكثرة الانشغال. فما كان من فضل فمن الله وحده وما كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان. نسأل الله المغفرة والقبول.

كما نشكر الإدارة وعلى رأسها د. عبد الكريم بكري لما تبديه من نشاط واهتمام.

المقدمة

قبل الخوض في غمار الحديث عن البحث عن المخطوطات، أول سؤال يتبادر إلى أذهان الحاضرين هو: ما الدافع لهذا الإنسان حتى يقوم بهذه الجولات الطويلة العريضة؟ وكيف استطاع أن يقطع آلاف الأميال تارة وحده وتارة مع زملاء له لهم نفس الهاجس؟ والجواب الصريح: أنه قد هالني إبان البحث عن المخطوطات وعن المصادر التاريخية الإسلامية ما وجدته من إهمال كبير وتنكر لمجهودات السلف، إضافة إلى البحث فيما يخص دراساتي التاريخية وأبحاثي الخاصة فتولدت عن أوضاع المخطوطات الإسلامية حسرة بالغة على أحوالها يمكن حصر ذلك في أمرين اثنين: الأول: زهد أصحابها فيها من أبناء الملة الإسلامية. الثاني: حرص المبشرين والمستشرقين على جمعها وتهريبها.

* - قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية، جامعة وهران.

فقد كان من الأمر الأول: أن تركت جهود الأجداد تضيع سدى. فوضعت في أماكن لا تليق بها حتى تسابقت إليها عوادي الزمن فنخرتها الأرضة وحولت صفحاتها إلى غرابيل، وأخذت الأنوار والأشعة الشمسية نضارتها، وأخذت الرطوبة وضوحها ومزجت بين حروفها.

أما الأمر الثاني: فقد اهتم أهل الغرب بحضارة الإسلام ولكي يتعرفوا على المسلمين جيّداً، ويأخذوا بتلايب شؤونهم، أخذوا مخطوطاتهم حتى يدرسوا أنسابهم وقبائلهم وعاداتهم وتقاليدهم، وجسوا نبض عروق الضعف فيهم. فتسنى لهم بذلك ضرب الأسافين في جدع شجرة الإسلام الباسقة وهكذا ذوت أغصانها وتصوحت أوراقها. فتمكنوا من إبراز القبليّة والتفريق بين المسلمين وأشعلوا نار الفتنة بينهم.

وباستعمارهم لأراضي الإسلام سهل عليهم أخذ مقوماتهم الحضارية وصار المسلم المستعمر لا يعرف أن أجداده أرسخ قدما من الأوروبي المستعمر، فهانت عليه لغته ودينه. وهكذا ضيع آثار أجداده بل في كثير من الحالات تخلص منها رميا وتمزيقا وإحراقا.

وهكذا ما جعلني أضرب أكباد الإبل إلى الأطراف البعيدة من العالم، فوطئت رجلاي رمضاء الصحراء الإفريقية المحرقة، وكللت رأسي ثلوج أوروبا الباردة، ولفحت وجهي رياح السموم الآسيوية الملتهبة. فمن الله علي وعلى من سار في هذا الدرب بأسفار كانت نتائجها مرضية والله الحمد.

واقع المخطوطات داخل القطر الجزائري:

إن المطلع على المخطوطات في المكتبات الخاصة بالقطر الجزائري تتنباه الحسرة من عدة جوانب.

أولها: عدم الاكتراث بالمخطوط من طرف العامة وربما حتى من طرف بعض المثقفين. إذ يرون أن المخطوط أوراق أكل عليها الدهر وشرب ومنهم من يود التخلص منه بحرقه، أو على الأقل إبعاده عن رفوفه الزجاجية الجديدة والتي فسحت المجال لتزيينها بالمجلدات المذهبة إن لم نقل بالأواني المنزلية المستوردة، وكثيرا ما دخلنا مكتبات كانت لقضاة أو علماء فضلاء آلت إلى ورثتهم. فوجدناها قد تحولت إلى ركام من الأوراق تذرّوها الرياح وإلى غرف انهارت سقوفها عليها وسفت عليها الرياح برمالها فطمرتها.

وإذا سألت عن المخطوط لدى مالكيه لاحظت نوعا من الامتناع في وجوه من حكم عليهم بالمحافظة على ذلك الوقف من الأجداد، ولكنك إذا نبهته إلى أهمية ما يملك ونذرتة تم طلبت تصويره أو تصفحه فقط لوقت يسير تحولت الأمزجة من نبذ له إلى ضن به، ومن إهمال له إلى غلق الأبواب بالأعمدة الموصدة ومنعت من إلقاء نظرة أخيرة عليه.

ولكن هذا التشاؤم يزول أمام أنواع المكتبات التي ارتقى أهلها بها وخصصوا لها دورا قائمة وفهارس منظمة وأوقات منظمة ففتحوا أبوابهم للباحثين ورجعوا على مخطوطاتهم بالعناية ترقّما وتصلّحا لما تقطع منها،

ولو أنهم لم يرقوا بها إلى الترميم الحديث والتعقيم بالمواد الكيميائية والحفاظ عليها في مناخ ملائم ودرجة حرارية مدروسة

ثانيها: والجانب الذي يبعث على الحسرة هو تسرب المخطوطات الإسلامية سواء أكان ذلك في قطرنا الجزائري أم في الأقطار الإسلامية الأخرى في بلاد بعيدة أجنبية من بينها دول لا تكثر بهذا الموروث الحضاري بل وربما ترى في أخذه نوعا من إزالة المقومات والشخصية واستلابا لحضارته، وإرغاما لأنفه في رغام الأحوال حتى لا يدعى مستوى علميا كان قد تفوق به في يوم ما.

ف نجد تلك المخطوطات عليها أرقام تشبه أرقام السيارات أو ربما أرقام المساجين وتغلق عليه في صناديق وترمى به في أقباء يكتنفها الظلام وتمر عليها عقود من الزمان دون أن يقف على قبورها أو توابيتها واقف. وحينما تكتشفها هناك تجد عليها كلمة. .وقف في سبيل الله لمسجد كذا... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يجوز إخراجها أبدا. هناك قد تسيل على وجنتيك العبرات وتتحسر على ناس ارتعوا على الأرائك، أو غطوا في نوم عميق وينزعجون بكل همسة تحاول إيقاظهم لإنقاذ تراثهم الحضاري العظيم.

ثالثها: والحسرة العظمى، والطامة الكبرى هي تلك التي تسبب فيها أجيال من المسؤولين المتعاقبين على وزارات التربية في البلاد الإسلامية فتراهم يقيمون الثقافة بالفن والغناء فقط، أما القسطاس والقلم ونتاج سهر الليل فلا مجال لها، أو تأخذ حيزا ضيقا من اهتمامهم .

ولم أسمع بدولة أقامت وزارة للتراث ووقفت أرصدة كبيرة من المال والجهد لجمع المخطوطات، ووزيرا يقف بقدميه على هذه المشاريع، إلا دولة حديثة يليق تأجيل الإفصاح عنها إلى حين.

وصف حال بعض المكتبات

قبل الحديث عن المكتبات أشير إلى أنني ألتزم بوصف ما شاهدت وصفا موجزا في إشارات عابرة كما أن الدليل الذي أرفقته في الأخير لا يكون مسحا شاملا لأن ذلك من اختصاص أصحاب علم المكتبات ولا يكون ذلك إلا من باب الاستئناس إليها ولمعرفة أماكن تركيز المخطوطات العربية الإسلامية حتى يقصدها من أرادها.

مكتبات الجنوب الغربي: (أدرار - ملوكة - المطارفة)

قصدت هذه الجهة لأنها كانت ممرا للقوافل التجارية عبر التاريخ إلى السودان الغربي. وفيها من القرى والمدامر ما لا يتصوره الإنسان. قرى مسورة بأسوار من اللبن وعلى حوافها أبراج وقد تحاط بخندق من جميع جهاتها.

يمتاز أهل هذه المنطقة بالصلاح والتقوى والطيبة إلى حد بعيد وهذا ما جعلهم يهيمنون بالكتاتيب تحفيظا للقرآن الكريم ثم طلبا للعلم على حسب مستوياته، فاهتم ناس منهم بجمع المخطوطات وحفظها في خزاناتهم الخاصة.

زرت بعض هذه القرى وتمكنت من تصفح هذه المخطوطات والإطلاع عليها وهالني ما وجدته مما لم يحقق أو يطبع إلى حد الآن. وقد حفظت في خزانات ظاهرة. وبعضها في غرف نوم صاحبها لا يأتي بها إلا بعد الاطمئنان إلى طالبها. وهي كلها بحاجة إلى فهرسة حتى يسهل البحث فيها.

وإن الشيء الذي حز في نفسي وجود مكتبة شاهدتها بنفسني بعد أن ذهبت إليها مع صاحبها وكانت توجد في قرية مهجورة بكاملها. بعد أن أزعنا الرمال دخلنا الغرفة التي تضم المخطوطات في خزانات ورفوف حديدية. كان سقف الغرفة منهارا فإذا بالمخطوطات قد علاها الغبار و نخرتها الأرضة فلا تفتح مخطوطا إلا وملاً حرك برمل دقيق كالطحين. وحينما طرحت عليه اقتراح تصويرها والاتصال بالهيئات الخاصة لإنقاذ ما تبقى منها، قال: "إننا قد أحسنا الظن ببعض المسؤولين ولكنهم لم يرجعوا ما أخذوه إلى حد اليوم ولا نعرف مآله". فوجدت صاحب المكتبة بين حسرتين. حسرة على قلة ذات اليد للقيام بمكتبته أحسن قيام وحسرة على المخطوط الذي يتلاشى بين يديه شيئا فشيئا وهو يزداد تلفا و تمزيقا.

فتمنيت أن لو كانت لنا هيئة مثل الهيئات الإنسانية التي تقدم العلاج والغذاء مباشرة للمحتاج دون وضعه بوساطة فتقدم الدعم للمكتبة مباشرة وتصطحب معها مختصين أمناء بآلات الترميم والعلاج وتأخذ صورا للمخطوط بثمان مشجع وتترك المخطوط عند أهله. أو في المسجد الذي وقف فيه.

مكتبات الوسط:

ميزاب: يمتاز أهل ميزاب بالاهتمام البالغ بالعلم تدريسا ومحافظة. فلا يشتهر شيخ إلا وقد خصص جناحا من داره لمكتبته الخاصة فيجلب إليها من المخطوطات والكتب حسب استطاعته. ولعل أشهر المكتبات الخاصة توجد في مدينة بني يزجن ثم تليها غرداية فمليكة ثم العطف والقرارة فبنورة فبريان.

وإن أهم مكتبة على الإطلاق مكتبة قطب الأئمة الشيخ أحمد بن يوسف أطفيش رحمه الله. وميزتها أنها تضم إلى جانب المخطوطات التي اقتناها الشيخ في حياته، مخطوطات كانت من تأليفه تربو عن ثلاثمائة مؤلف بخط يده أو بخط أحد تلاميذه، وتمتاز بفهارسها واتخاذ القيم بها وفتحها لجميع الباحثين الراغبين في التحصيل في الساعات والأيام المخصصة لذلك.

وقد سارت على هذا المنوال مكتبات خاصة ظهرت بعدما كانت غير مستعدة لاستقبال الطلبة والباحثين حتى لأبناء المنطقة نفسها.

والآن وقد اضطلعت جمعية التراث بالقرارة بمهمة الفهرسة بالحاسوب لأهم مكتبات قرى وادي ميزاب وفهرست 13 مكتبة تضم أكثر من 3000 مخطوط.

ورقلة: نقوصة - عجاجة

زرت وارجلان عدة مرات كما أنني قضيت فيها فترة للتدريس بمعهد تكوين المعلمين وأساتذة التعليم المتوسط، فعلمت أنها كانت حاضرة من حواضر المغرب الأوسط كان لها ماض يمكن أن يكتب بماء الذهب وحضارة راقية توجد بمدينة سدراته فهي تضاهي قرطبة وإشبيلية، غير أن الفتن العمياء والجهل أبعداها عن أذهان الناس بل حتى عن المثقفين أنفسهم، فلم يعلموا أنه كانت لها مكتبات ضخمة وعلماء ورعين، وحلق للتعليم وأماكن للانقطاع فيها للعبادة وأسواق ضخمة ومسبكة لذهب غانه ونقارة المجلوب من غرب إفريقيا ثم يتم إرساله منها إلى الأندلس ومنها إلى أوروبا أو إلى القيروان ومنها إلى مصر عبر الطرق التجارية أيام عز الدولة الرستمية.

فسعيت جاهدا من أجل التعرف على ما بقي من المخطوطات بها بعد الحملة المسعورة عليها من طرف المبشرين ومن بينهم (جون ليشو) (Jean Lethielleux) -الذي قضى خمسين عاما في طرق القوافل التجارية يجمع المخطوطات -وغيره كثيرا، فلم أجد إلا الشيء القليل ومن بينها عدد قليل عند آل الفقيه كانت في صندوق وتنفرد بكتاب الأموات للشيخ أبي العباس أحمد ابن محمد بن بكر الفرستائي النفوسي (ت 504هـ) وتفسيرا للقرآن الكريم يرجع تأليفه إلى سنة 510هـ.

وبعد أن تبّنت أهلها إلى أهمية المجموعة التي يمتلكونها غلّقت أبوابها دوني حتى يستحدثوا خزانات خاصة للحفاظ عليها.

كما زرت في قرية عجاجة مكتبة بها من المخطوطات الشيء اليسير.

وزرت مدينة نقوصة وأخذني أحد فضلائها إلى نقوصة القديمة -المهجورة تماما- وتسورنا دارا كانت لأحد أقاربه وقد كان قاضيا ودخلنا غرفة بها من الصفحات المتناثرة على أراضيها ما يوحي إليك أنك في غابة ملتفة الأشجار في فصل الخريف، وصرت اتحرز من الوقوف عليها خشية أن أدوس آية أو حتى اسما مقرونا بأسماء الله الحسنى، حاولت جمع الصفحات حسب خطوطها أول الأمر وأنواع حبرها ومقاس أوراقها فلم أستفد منها إذ أن أغلبها لا يوحي بموضوع متصل يفيد الباحث.

هكذا يقضي علماؤنا السنين الطويلة في البحث المضني إلى أن يصلوا إلى مراتب عالية من العلم ثم التأليف والتصنيف والاستنساخ فإذا بالخلف يعرض صفحا عما كتب وألف سلفه ويتركه للضياع والإهمال ثم للاندثار والزوال.

مكتبات العالم الإسلامي والغربي

إذا أردنا استقصاء المكتبات الإسلامية في البلاد العربية نبدأ من الغرب إلى الشرق، من المملكة المغربية غربا إلى سلطنة عمان شرقا سردا سريعا.

المملكة المغربية:

مما لا شك فيه أن المملكة المغربية حاضرة عريقة بها من العلماء والكتاب والمكتبات مالا تفي بذكره مجلدات ومجلدات ولكنني وحيث أنني التزمت بذكر ما زرته فقط، نذكر الآتي:

مدينة فاس: بها مكتبة القرويين تضم 5600 مخطوطا ولقد تصفحت كل فهارسها دون الإطلاع على المخطوطات نفسها، إذ أن زيارتي لها كانت في يوم واحد فقط وكنت الوحيد في قاعد المكتبة مع القيم لأن ذلك اليوم صادف يوم راحة ولولا الإلحاح لما بقي القيم معي طوال ذلك اليوم.

مدينة الرباط: كانت زيارتي لها أيضا قصيرة لظرف تلك الرحلة واستغللت أمسية واحدة إذ البقاء في الخارج مع قلة ذات اليد يعني الكثير من الإرهاق المادي والنفسي فاطلعت على بعض فهارسها وبعض مخطوطاتها.

الجمهورية التونسية:

جزيرة جربة: توجد بجربة التي قصدتها مكتبتان قيمتان بما فيها من المخطوطات ما لا يوجد في غيرهما، المكتبة البارونية، ومكتبة الشيخ سالم بن يعقوب وكلاهما مفتوحتان للباحثين. ولعل المكتبة البارونية أكثر تنظيما وعناية، بينما مكتبة الشيخ سالم بن يعقوب رحمه الله أقل من ذلك لكون صاحبها ضريرا ومسنأ، تمتاز بغناها بالمخطوطات التي اصطحبها معه حينما رجع من مصر.

وقد اهتم بها الألمان ويعد عمل د. فرنار شفارتز في تحقيق أقدم مخطوط عربي في شمال إفريقيا وهو كتاب بدء الإسلام وشرائع الدين، لابن سلام اللواتي (المتوفى بعد 273 هـ) وقد حققه بمعية الشيخ سالم نفسه، ولم يكتف العالم الألماني بذلك بل صور ما أمكنه من المخطوطات بآلات اصطحبها معه وأرسل بالأفلام إلى ألمانيا. ولقد زرت العالمين كليهما أحدهما في جربة والثاني في ألمانيا واستفدت منهما الكثير.

جمهورية مصر العربية:

تعد مصر من أعظم البلدان الإسلامية حضارة وأكثرها ثقافة وكل مسلم يحق له أن يفتخر بما في مصر من مشاهد حضارية مساجد، قلاع، آثار، وكذا المكتبات التي تضم نفائس المخطوطات، ولعل أهمها نسخ القرآن الكريم النادرة التي ترجع إلى القرن الأول الهجري، كتب بعضها على رق الغزال والبعض الآخر على قطع عريضة من عظام الجمال.

وكان لي الحظ الوفير حينما حذب علي شيخني الفاضل الحاج محمد أطفيش وهو ابن الشيخ إبراهيم أبي إسحاق أطفيش الجزائري منبنا المصري مسكنا وموطنا. إذ أن فرنسا نفت والده من الجزائر فاختر مصر موطن له -وقد أحسن الاختيار- فكان من أطواد دار الكتب المصرية وله تأليف وتحقيقات من بينها تحقيق تفسير القرطبي. وكان ابنه محمد خير خلف لخير سلف فاشتغل بدار الكتب أيضا وهذا ما يسر لي خدمات جلي من الموظفين الطيبين فعكفت في دراستي بالقاهرة بدار الكتب وحينما اهتمت بالمخطوطات كانت مكتبة الهيئة

الغامة للكتاب بكرنیش النيل قد فتحت أبوابها فاطلعت على المخطوطات من خلال الميكروفيلم أو الفهارس الموجودة في الرفوف وتضم المكتبة 71838 مخطوطا من بينها 57496 بالعربية.

الجمهورية السورية: دمشق

المكتبة الأسدية - الظاهرية.

لم أتمكن من زيارة المكتبة الظاهرية إلا مرتين فقط تمكنت من الدخول إليها في الزيارة الثانية زائرا. وجدت أن المكتبة الظاهرية قد نقلت إلى الأسدية، دخلت مباشرة جناح أدلة المخطوطات وسجلت ما أمكن تسجيله في دفترتي الخاص.

وبها 79320 مخطوطا، وهي بحق مفخرة العالم العربي من حيث التنظيم والأجنحة المتخصصة. وأخص بها قاعد شاشات عرض الميكروفيلم والأماكن المتخصصة للباحثين.

السعودية:

لم تفتني الفرصة وأنا موجود لأداء فريضة الحج فزرت مكتبة الحرم المكي قبل توسيعه الحرم المكي وهدم المكتبة وزرت أيضا مكتبة الحرم المدني. وتضم الأولى 5000 مخطوطا. وتضم الثانية 13700 مخطوطا. ورغم تجسمي المشاق لمكتبة الجامعة الإسلامية فإنني لم أتمكن من دخولها لكونها في عطلة.

سلطنة عمان:

بفضل الله تبارك وتعالى حظيت بدعوة من وزارة الأوقاف بسلطنة عمان لزيارتها أول الأمر وللتدريس بها بعد ذلك. ولا يمكن أن أفصل بين الفترتين فكلاهما كانت مفيدة ومهمة ولذا فأنا أصف فقط بعض المكتبات الخاصة والعامة بها.

تعد سلطنة عمان ضمن البلاد العربية الإسلامية التي انفردت بمؤلفين عباقرة كتبوا الموسوعات الفقهية ونبغوا في الشعر وجمعوا الكتب على شتى أنواعها وحافظوا عليها.

ولعل أبرز حدث نسجله حسب إشارتنا في المقدمة هو اهتمام سلطان عمان بتشكيل وزارة خاصة تدعى بوزارة التراث القومي والثقافة. ووزيرا ووكيلين تابعين له بذلك حافظت السلطنة على تراثها الحضاري المتمثل في طبع وتصوير المخطوطات وحفظ الأصول منها بالترميم والصيانة إلى جانب الاهتمام بالجانب المعماري ترميما وإبرازا فبنت مكتبة خاصة بالوزارة جلبت إليها المخطوطات شراء من الأهالي أو اقتناء منهم. وتضم مكتبة وزارة التراث القومي والثقافة أنفس المخطوطات خاصة ما ألفه علماء الإباضية عن المذهب الإباضي.

مكتبة المستشار السيد أحمد بن محمد البوسعيدي.

كون المستشار الخاص بالسلطان السيد أحمد بن محمد البوسعيدي مكتبة ضخمة بالسيب تبعد عن مسقط بحوالي 50 كلم، جلبت إليها المخطوطات بشرائها بأثمان عالية إضافة إلى اتخاذ مخبر خاص بترميم المخطوطات غير بعيد عن المكتبة وسط حي هادئ يجد فيه الباحث راحته وبغيته ولا يستفيد الداخل في المكتبة

من المخطوطات فقط بل هناك دليل يطوف به في أرجاء المكتبة بما فيها من حلي قديمة وأسلحة وصور يغوص بها في عمق تاريخ عمان.

مكتبة الشيخ السالمي

توجد بمدينة بدية أيضا مكتبة للشيخ نورالدين السالمي رحمه الله بها جناح خاص للضيف الذي يحل بها فلا يجد غربة بها مهما طال به المقام وتضم أيضا مخطوطات نادرة وبها نفس الطريقة من عرض للأسلحة التقليدية القديمة والأواني المستعملة في زمن الشيخ السالمي رحمه الله.

وللعلاقة بين الجزائر والسلطنة منذ القديم يجد الباحث كثيرا من الرسائل أو الفتاوى أو المؤلفات المغربية بالمشرق كما آلت إلى المغرب الأوسط كتب من المشرق، والحديث من أجل هذا التواصل يطول و يحتاج إلى عناية خاصة.

مكتبة الشيخ سالم بن حمد الحارثي بالمضيرب.

إذا زرت مكتبة الشيخ سالم بن حمد لا تجده إلا مهتما بمطالعة كتاب أو تحقيق مسألة. لقد اتخذ بيتا خاصا لمكتبته وضيوفه وقد جمع من المخطوطات ما هو جدير بالتنويه، ومن الغير الممكن في هذه العجالة ضبط فهارس هذه المكتبات وإلا فإن ذلك يحتاج إلى وقت أوسع سيأتي في حينه إن شاء الله تعالى. كما أنني لم أهمل بعض الدور التي تحوي ولو مخطوطا واحدا أو بضعة مخطوطات وذلك ما وجدته بين أيدي الأهالي في مدينة مطرح.

مكتبة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام السلطنة

للشيخ أحمد مكتبة خاصة بمحل إقامته بمسقط، يدخل إليها كل طالب علم وعالم ولكونها حديثة النشأة فهو مهتم بإضافة المخطوطات إليها لإفادة الطلبة والمشايخ الوافدين إليها.

مكتبة د. مبارك بن عبد الله الراشدي بمدينة سناو.

رغم قلة المخطوطات الأصلية لدى الدكتور مبارك بن عبد الله الراشدي فإن الذي زاد مكتبته قيمة تلك المصورات التي جمعها سواء أكانت من تونس يوم إقامته بها أم من أماكن أخرى.

كما جمع الدكتور خلفان المنذري بعض المصورات أيضا من القاهرة غير أن المصورات في حد ذاتها تخفي الكثير من الأسطر والحروف إضافة إلى تغيير نصاعتها بعد فترة وجيزة، وقد تصاب الصفحات الملساء بالتصاق مما يجعل فتحها مرة ثانية تكشف وجه الصفحة المقابلة فتأخذ الخبر منها .

كما اهتم الشيخ أحمد الهنائي بجمع الكتب والمخطوطات وفي كل دار علم كتب مخطوطة تحتاج إلى حصر وفهرسة ومجهود جبار.

أماكن وجود المخطوطات خارج البلاد العربية

فرنسا:

إن من الاهتمامات التي شغلني البحث عن تاريخ المنطقة التي أعيش فيها وإبراز تاريخها المغمور الحافل بالبطولات. والتمعن في آثار السلف وواقع الخلف فوجدت أن الاستعمار قد سعى جاهدا لبث الفقرة بين أبناء الوطن الواحد ونجح إلى حد بعيد في تصديق الدارسين لكثير مما كتبه وادعاه كما أنه قد أخذ كثيرا من المقومات الحضارية وأخفاها.

لقد استشاطت فرنسا غضبا بعد أن تيقنت على أن المعاهدة التي ربطتها بميزاب ما هي إلا مناورة لريح الوقت بل الأمر تبين الأمر من خلال ما صرح به الضباط الفرنسيون أن ميزاب ملجأ للثائرين ضدها فهي كما عبر تيرمان (Tirman) مصنعا للبارود، ومخبأ للثوار، ومخزنا للمؤونة. فطلب من المتسللين الفرنسيين سواء أكانوا سائحين أم جنودا أن يطلعوا عما يخفيه (Tolba) وما يضمرونه. (أنظر الوثيقة الخطية بالفرنسية).

فبدأت العملية بمخطوط أبي زكرياء يحيى بن أبي بكير الورجلاني (ت474). فسرق أوجت بوسترو نبخة من كتاب سير الأئمة وأخبارهم. واستطاع ماسكراي أن يترجمها ترجمة رديئة وذلك كله في سنة 1878 قبل الهجوم على المنطقة سنة 1882.

وهكذا يأتي أكبر المهريين زيقمونت سموجوفسكي البولوني الأصل فيجمع من الجزائر وتونس ومصر مجموعات تهم المنطقة الميزابية وأماكن وجود الإباضية فأرسل بها إلى لفوف قبل أن تؤول إلى الإتحاد السوفيياتي حينما كانت أصلا لبولونيا. ثم يأتي بعده تاد يوش ليفتسكي فيهرب إبان الحرب العالمية مجموعة إلى داخل بولونيا - كراكوفيا - ويترك البقية هنالك لا يعلم مصيرها. وآلت المجموعة بيعا إلى مكتبة جامعة مدينة لفوف KAZIMIR والبقية يجهل مصيرها.

كما يهرب جون ليشيو وقد عاش متنقلا في الصحراء الجزائرية خمسين عاما فينقل مخطوطات يجهل مصيرها وعناوينها غير أنه من المحتمل أن تكون في ملاجئ الآباء البيض في جنوب بفرنسا حيث قضى بقية حياته فهو يشير في كتابه وارجلان مدينة صحراوية بالفرنسية إلى مخطوط هام وناذر لم نسمع به لافي كتب المغاربة ولا المشاركة العمانيين شيئا، ويصف بواسطته سدراته الأثرية - قرب وارجلان - و يتكون الكتاب من خمسة أجزاء.

ويجد الاستعمار في التحايل لنهب الثروات من خزانات الأهالي تهديدا وإغراء وكم من أوروبي تستر في أسمال الرعاة لاقتحام القرى الآمنة ولكن زرقة العينين ولثغة اللسان وبياض البشرة فضحته فرجع خائبا، وبعضهم هرب بعد تهديد الأهالي له بالقتل.

المكتبة الوطنية: باريس

تولي فرنسا أهمية بالغة بمكتبتها الوطنية فهي رمز الحضارة والرقي ولكن في كثير من الحالات على حساب العمق الحضاري الإفريقي أو مستعمراتها بصفة عامة فأقامت معارض داخل المكتبة وأجنحة خاصة بالدراسات الإفريقية. ومكتبة مستقلة بالمخطوطات من بينها المخطوطات العربية الإسلامية.

ويوجد بهذا الجناح 7206 مخطوطا عربيا.

مكتبة المجلس الوطني:

توجد بها أربعة مخطوطات

126 Rue de l'Université. 75007 Paris FRANCE

بولونيا: كراكوفيا

من خلال زيارتي لكراكوفيا تبين لي أن مكتبة جامعة جاجلونيا تضم كتبا ومخطوطات عربية، ولعل أهم من اعتنى بالمغرب الأوسط والأدنى البروفسور تاديوش ليفتسكي لما عنده من مخطوطات مغربية نالها من استاذة زيقمونت سموجوفسكي فاستطاع كتابة مقالات في مجلة Folia Orientalia الصادرة من كراكوفيا (الأكاديمية البولونية للعلوم) قسم الإستشراق. وهذه المخطوطات يجهل مصيرها الآن بعد وفاته.

روسيا: لفوف

بعد جهد جهيد بدلناه بتوفيق من الله وما وجدناه من تأييد من المقيمين الجزائريين في روسيا والسفارة الجزائرية أمكننا التعرف على المكتبة التي اشترت من زيقمونت سموجوفسكي مجموعة المخطوطات التي جلبها من جولاته في البلاد العربية الإسلامية وخاصة من ميزاب وجزيرة جربة بتونس.

لقد سافرنا من موسكو إلى لفوف، مسافة 24 ساعة بالقطار (أي إلى الحدود البولونية الروسية)¹ قصد الإطلاع على المخطوطات المهرية إليها ما بين سنتي 1913 و1926 للميلاد ولولا طلب السفارة رسميا بالدخول إليها لما تمكنا من دخولها وقيل لنا إننا أول من يطلع عليها بعد ثلاثة أرباع القرن من جلبها ففيها ما هو جيد و فيها ما قد تلف وصار غربالا مخروما أو صار مستديرا لتآكل زوايا صفحاته بالرطوبة.

فلم نتمكن من تصويرها ولا شراء إحداها مثل ما هو معروف في البلاد الشيوعية من الرهبة والخوف من استنساخ أية وثيقة ولو كانت في حجم جناح بعوضة.

سانت بطرسبرغ:

توجد بسانت بطرسبرغ مكتبة ضخمة هي حصيلة ما جمعه روسيا بعد استيلائها على أرض الإسلام بعد سقوط الخلافة العثمانية واقتسام الرجل المريض. والمسير إليها انطلاقا من موسكو يحتاج أيضا إلى 24 ساعة

1- كانت الزيارة صحبة الحاج سعيد محمد أيوب وناصر إبراهيم بن يحيى.

بالقطار شمالا إلى دائرة القطب الشمالي حيث لا تغيب الشمس في الصيف أكثر من سويقات حتى تشرق مرة أخرى.

أختيرت المكتبة في هذا المكان بالذات لأنها مدينة ترمز عند الروس ب إلى الفخر والاعتزاز وكانت تسمى قبل تغيير اسمها -لنين قراد-، من الدكاترة الذين أفادونا د. خالوف أنس.

ولمسننا خوفا كبيرا من إخراج المخطوط من المخزن فالمرافق للمخطوط لا تكاد عيناه تفارقان حركاتك ومعالجتك للمخطوط إلى أن ترجعه معه وتوقع في الحاليتين. وقد اهتم بفهرستها Kratehkousky .

مكتبة العاصمة موسكو: كانت المكتبة في حالة لا تسمح بدخول الزوار إليها وكانت لنا جلسة مع المقيم دون رؤية الفهارس.

مكتبة معهد مير- عرب في مدينة بخاري

لا أذكر أني رأيت المخطوطات بهذا المعهد غير أنني أذكر أن هناك تضيقا على المسلمين والإسلام وكانت الكتب المدرسية عبارة عن مناهج عراقية قديمة. كما أن المصاحف نفسها في روسيا كانت عبارة عن صفحات لسور غير تامة وحضرنا في مسجد موسكو توزيع المصاحف القرآنية للأئمة كل قرية تحظى بمصحف واحد فقط وذلك بعد السماح بدخولها بعد تحريم دام 70 سنة.

ألمانيا الغربية:

المكتبة الألمانية برلين الغربية -قبل سقوط الجدار المشهور- تعد من أعظم مفاخر العالم لما فيها من ثراء من جهة و لا يحتاج الباحث فيها إلى خروج منها لما فيها من قاعات للراحة والمرافق الضرورية كالمطعم ومركز لفك العمله للتصوير ومستقبل للأمانات حيث تسلم إليه الأشياء الزائدة. تضم هذه المكتبة أكثر من 9000 مخطوط. فالمسافر من باريس إلى برلين قطع المسافة في ليلة واحدة بالحافلة وليست هناك تعقيدات حدودية ويستطيع الباحث التعامل رأسا مع الميكروفيش وآلات التصوير بأحجام مختلفة.

تشكوسلوفاكيا:

مرورا بها إلى ألمانيا الغربية برا حاولنا دخول مكتبتها ولولا تدخل السفارة الجزائرية والتوسط لنا لما دخلناها رغم إذن الجامعة الجزائرية للبحث في المكتبات وما راعنا هو أن هذه المخطوطات كما قال القيم لأول مرة نخرجها من صناديقها فالقائمة كلها أرقام كأرقام السيارات لا تستفيد من رقم أبدا وكان لزاما علينا تصفحها الواحدة تلو الأخرى.

وإن الكتب التي رأيناها محلاة بالذهب مكتوبة بخط فارسي جميل أغلبها في المذهب الشيعي ولعلها أخذت من بلادهم.

ختاما،

لقد آن الأوان للتفكير جديا على مستوى العالم العربي الإسلامي لافتكاك ما أخذ من تراث إلى بلاد لا تمت إلى الإسلام بصلة إما بشرائه مهما كان ثمنه وهو الأمثل أو بجلبه بتصويره وحفظه حسب متطلبات العصر. ولكن قبل هذا وذاك يغدو معرفة مكانه من أولى الضروريات مع كونه شيئا بالغ الصعوبة إذ يحتاج إلى دراسات جادة في الموضوع وفرق بحث همها هذا العمل دون غيره وهاجسها العمل لوجه الله وحده لا تبحث عن مدح أو إطراء. بل يستعد لمواجهة مادية صعبة فقد يجد الباحث نفسه وحيدا في بلد غريب بجيب بارد ولسان معقد.

ولكن بقلب نابض بالإيمان، وبعزيمة قوية، تزول هذه الصعاب بإذن الله تعالى. ومادامت الفرص قد سنحت والرياح قد هبت لاستحداث أمثال هذه المخابر، فعلينا أن نستبشر خيرا ولا يكون تفاؤلنا واقعيا إلا إذا رأينا العمل يتجسد في الميدان إن شاء الله. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون. قائمة لبعض المكتبات التي تضم مخطوطات عربية خارج القطر الجزائري اسبانيا:

مكتبة الاسكوريال اسبانيا 1870 مخطوطا

مكتبة مادريد اسبانيا 150 مخطوطا

المغرب:

مكتبة ابن يوسف المغرب نهج الرميلا مراكش 73 مخطوطا

المكتبة العامة تطوان 2200 مخطوطا

مكتبة مولاي حسن تطوان 45 مخطوطا

موريطانيا:

مكتبة المعهد الموريطاني للأبحاث العلمية نواكشوط 3200 مخطوطا

هولندا:

Inter Documentation Company

5000 Leiden Pays Bas مخطوطا عربيا

المملكة العربية السعودية:

دار الكتب الوطنية شارع الملك فيصل 150 مخطوطا

مكتبة جامعة الملك سعود الرياض 10151 مخطوطا

المكتبة المركزية لجامعة الملك عبد العزيز جدة 2197 مخطوطا

مكتبة الحرم المكي الشريف مكة المكرمة 5000 مخطوطا
عمادة شؤون المكتبات المدينة المنورة 7225 مخطوطا
بالجامعة الإسلامية مكتبة الأوقاف المدينة المنورة 13700 مخطوطا

تونس:

المكتبة الوطنية تونس العاصمة 21761 مخطوطا
الإتحاد السوفياتي (سابقا) 40000 مخطوطا عربيا
أوزبكستان:

طاشقند (الشاش) 7000 مخطوطا
مكتبة جامعة قازان (KAZAN) 478 مخطوطا

ألمانيا:

Potsdamer Strasse 33. Berlin.Preussisher STAATSBIBLIOTHEK
Kulturbesitz 9000 مخطوطا عربيا
Orientabteilung (SBPK)
Universitätsbibliothek Tübingen
Orientabteilung

مكتبة جامعة توبنغن 350 مخطوطا عربيا

جمهورية مصر العربية:

دار الكتب القومية كورنيش النيل 71838 مخطوطا منها 57469 مخطوطا عربيا

المملكة الأردنية:

مكتبة الجامعة الأردنية عمان 1950 مخطوطا

الكويت:

المكتبة العامة 155 مخطوطا

لبنان:

مكتبة معهد الدراسات الفلسطينية بيروت 21665 مخطوطا عربيا

سوريا:

مكتبة جامعة دمشق 20

المكتبة الأسدية 97320

مكتبة المعهد التاريخي حلب 6500 مخطوطا عربيا

الولايات المتحدة الأمريكية:

نيوجرزي (New Jersey) Princeton

مكتبة الجامعة 12000 مخطوطا عربيا

فرنسا:

مكتبة المجلس الوطني 4 مخطوطا عربيا

المكتبة الوطنية باريس 7206 مخطوطا عربيا

Bibliothèque Inter Universitaire Saint-Genevieve Place de Panthéon PARIS 310

مخطوطا عربيا

المكتبة الوطنية لجامعة ستراسبورغ فرنسا 144 مخطوطا عربيا

بريطانيا:

6300 British Library - London G.B مخطوطا عربيا

Centre for study – Birmingham
Of Islam and Christian- Muslim relations

1000 مخطوطا عربيا

Library of the G.B

تشكوسلوفاكيا:

براق 579 مخطوطا عربيا